منع الحرب ؟

حلم الأبد !

للأستاذ محمد توحيد السلحدار بك

خبت نار الحرب الكبرى السابقة ، وبقى أثر رزاياها وذكر أهوالها باعثين من البواعث على حب السلام والوعد بحفظه والتحذير من نقضه . من ذلك قول الفيكونت جراى إن الأفراد والأمم « إذا أرادوا ضمان المستقبل وحياة المدنية ، وجب أن يعرفوا هل الحال العقلية السائدة فى الحاضر هى أكثر حذراً وصواباً من العقلية التى سادت قبل تلك المحنة العظيمة ، وإلا زالت مدنيتنا كما زالت مدنيات سابقة[1] » ؛ وقول بلدوين رئيس الوزارة البريطانية الأسبق « من فى أوربا يجهل أنه إذا وقعت فى الغرب حرب جديدة انهارت فى زلزلة هائلة مدنيتنا المؤلفة ، كما انهارت مدنية رومة »[2] وقول السير ديفز « إذا نشبت حرب عالمية جديدة ، واستخدمت بالأسلحة التى تعدها التطبيقات العلمية للانسان ، سهل إبادة الأمم فى بضعة شهور »[3]

(١) و (٢) و (٣) من كتاب « مشكلة القرن العشرين » لداويد ديفز
Le Paobleme du xxe Siecle,1931, david davies, Payot

إصغاءها إلى جدك ! أتراك أنت أيضاً قد سرت إليك العدوى فأنت مدبر عمن يقبل عليك مسىء إلى من يحسن إليك » أو قوله عن القتلة أتباع الطريق الذين استباحوا القتل ولا يستقبحون الكلام فى المراض « لأن شيخنا ينهى عن الحديث فى محل الأدب ، لأن الملائكة مكلفون بقيد كل ما نقول ؛ فإن نحن تحدثنا فيه فقد أرغمناهم على ملاحقتنا داخله ، وهذا لا يليق فى حقهم ! »

وترتفع نغمة الحديث أحياناً من السرد إلى الوصف البليغ بل إلى الشعر المنثور حين يعرض المؤلف للذكريات فى مدينة الاسماعيلية وغيرها من مدن القناة

فهو لا شك قراءة ممتعة ، ومطالعة نافعة ، وكلام فيه ما يروق بالسخر والفكاهة ، وفيه ما يروق بالوصف والبلاغة ، وكله مما يشوق القارىء أن يرى يوماً من الأيام « يوميات محام » ولا يقنع بـ « من يوميات ... »

عباس محمود العقاد

لكن التجارب والمخاوف جميعاً لم تمنع هذه الحرب الضروس الشعواء التى يشهد العالم طرا ما تحدث وحشيتها من دمار وانهيار . ذلك بأن الغرائز والشهوات ما زالت تتغلب على العقل ، والطبيعة لم تصلح بعد من شأن النزعات الأنانية ، ولم توجهها إلى التعاون الصادق ، والإنسان مقسور على الكفاح فى الحياة ، والدول من طبعها أن تتعمد التوسع وترغب فى الفتح والسيادة الدولية بالمنافسة المطلقة فى الاقتصاد والصناعة ، والتجارة والتسلح ؛ وهذه سبيل لا مندوحة فيها عن الحرب بين حين وحين ، تشتبك بحجة الدفاع الشرعى أو الدفاع عن شرف الدولة وسيادتها ، وتارة ببعض تلك الحجج التى تموه بها بواطن الأمور وحقائقها من أنانية وشهوات وأطماع ذاتية ومصالح شتى ، لتندفع الشعوب إلى اللاحم الجهنمية والمجازر الآدمية

على أن كل حرب كبيرة تعقبها فترة رجعية سببها الحاجة الطبيعية إلى الراحة واستجمام القلب ولم الشعث ، فترة تهبط فيها غريزة المنافسة الطليقة إلى مستواها الأدنى ، وتتلاشى فى المسكرات لتظهر على الأخص فى الميدان الاقتصادى ، فتدفع إلى الاستعداد لحرب تالية وإن كثرت الوعود بالمحافظة على السلام وبتوطيد دعائمه ومنع الحرب . من هذه الدعائم جمعية جنيف المحترمة التى أسست ، فيما زعموا ، لعبة بيد الدولة البريطانية وفرنسا ثم بيد بريطانيا وحدها ، ثم أخفقت فى منع الحرب : لأن منعها يحتاج إلى نظام يضمن العدل الدولى ، والعدل الدولى دونه التسلح ، ومنع التسلح لا يتحقق بغير أمن ، والأمن ليس يوجد بغير عقوبة مقررة للمعتدى ، وتقرير العقوبة ليس يوازع إلا إذا كانت هناك قوة تنفذها ، قوة تفوق مجموع قوى الدول ، وما من دولة تأمن طغيان مثل هذه القوة المتفوقة أو ترضى أن تنزل نزولاً حقيقياً عن سيادتها أو عن حق حماية شرفها ، بل حتى عن حق الاعتداء على غيرها

وليست سياسة جنيف تجربة أولى لحفظ السلام بجمعية دولية ، بل هى سياسة يمكن إرجاع العمل بها أول مرة إلى عهد المدنية اليونانية العهيد ، على الأقل . وقد عادت إليها الدول مراراً منذ ذلك العصر القديم ، وإن تكيف تنفيذها بالأحوال فى كل زمان . ولكن الأمم لا تزال ترفض بعزم وحزم أن

أن ترضخ لسيادة الحق ، وإن هددت الجوائح مرات عديدة بأن تهلك الجنس البشرى بأسره

كانت المدينة اليونانية فى الغابر دولة حقيقية ذات سيادة . وكانت دول المدائن الهلّينية تتحد لأغراض دينية وسياسية . ومن محالفاتها « اتحاد ديلس » (١) والعصبة « الآخية » (٢)

جمع اتحاد ديلس ، تحت رياسة أثينا ، الدول الهلّينية البحرية ، وأوجب عهد التحالف على كل منها تقديم سفن لأسطول مشترك أنشىء للدفاع عن الاتحاد ضد الفرس ، وحراسة النظام فى بحر إيجه ، ولتنفيذ العقوبات التى يقضى بها مجلس الاتحاد فى المنازعات بين أعضائه

كانت ديلس مقر المجلس ، ومن شروط الحلف نص يلزم أعضاءه أن يعرضوا عن المحاربة فيما بينهم وأن يحكموا المجلس فى منازعاتهم . وهو يمثل السلطة التنفيذية ويفصل الخصومات ويحكم بالعقوبات وأثينا تباشر تنفيذها وتقتضى كل عضو ما شرط عليه تقديمه من رجال ونقود ، وتتخذ تدابير الإجبار للمخالفين والمقصرين فى القيام بالالتزامات العسكرية

فكان كل عضو ، فى البداية ، دولة بحرية مستقلة ذات سيادة ، تعاون بحصة لحفظ القوة المشتركة . لكن أثينا كانت أقدر على بناء السفن الحربية وأسرع من غيرها ، فانتهى الأمر إلى اختصاصها ببناء هذه السفن إذ صار أكثر الدويلات فى الاتحاد يؤدى بدل السفن نقوداً للخزينة المشتركة

والنتيجة السياسية من هذا النظام هى سيادة أثينا على قوات الاتحاد الحربية ، وإرادتها سائر الأعضاء على معاونتها براً وبحراً وعلى اتخاذ دساتير ديموقراطية مماثلة لدستورها هى ، حتى ردت الاتحاد أمبراطورية بحرية تحت سيطرتها

أما العصبة الآخية فقد جمعت قرابة ستين دولة مدينة ، حين بلغت أعظم شوكتها . وكان لكل عضو منها حرية التصرف فى شؤونه الداخلية . أما السياسة الخارجية . فكانت بيد مجلس العصبة ، ولكل عضو صوت فيه . والمجلس هو الذى يعقد المعاهدات والمحالفات ويعلن الحرب ويجتمع بدعوة من رئيسه . ورئيسه قائد ينتخب كل سنة ولا يعاد انتخابه إلا بعد مدة رياسته بسنة ، وهو ، فى حالة الحرب ، يصبح قائداً عاماً مطلق السلطة . وقد اعتمدت العصبة على جيش دائم تحت إمرة مجلسها رأساً ، وكانت أحياناً تطلب مؤناً وعتاداً من بعض المدن ، أو تخول قائدها السلطة لحشد جميع القوات العسكرية التى لأعضاء الاتحاد . أنشئت العصبة لمواجهة النفوذ المقدونى على الخصوص ، وكانت تستعمل هذه القوى فى حماية نفسها وتنفيذ العقوبات ، وفى حتم الانضمام إليها على دول أخرى فى بعض الأحوال

وحق أن هذه العصبة وما سبقها من اتحادات كانت جميعها محالفات بين دول المدائن الهلّينيّة توالى الإخلاص لعنصر واحد ، لكن يخطئ من يظن أن تحقيق الاتحاد بين تلك الدول كان سهلاً أو أن التحاسد بينها لم يكن شديداً قاسياً

ثم بسط السلام الرومانى Pax Romana رواقه على كل أرض رفرف فوقها علم رومة ، وتحقق العدل بين الأمم للمرة الأولى فى التاريخ ، إذ ارتاض أقوام مختلفة عناصرهم ومدنياتهم لفكرة نظام سياسى مشترك ؛ ولولا اعتماده على تفوق الجيوش الإمبراطورية لما أمكن قيامه فى كل مكان وُجدت به حامية رومانية

وشبيهة الإمبراطورية الرومانية فى العصر الحديث هى الإمبراطورية البريطانية بالهند التى كانت إمارتها على اعتراك دائم والاضطهاد فيها كثير ، ثم انتظمت محاكمها بعد الاحتلال واعتمد تنفيذ أحكامها على الشرط وخلفهم الحاميات البريطانية . فقضت الهند رَدَحاً من الدهر فى ظل السلام البريطانى Pax Britannicus كالسلام الرومانى . لكن نظام الهند قد ضُرب على أهلها ، ولم يبن على أساس من رضائهم وإرادتهم

وقد وُضعت مشروعات عديدة فى أزمان مختلفة لتحقيق العدل الدولى وإقرار السلام ومنع الحرب . ولكن الأمم والدول عاشت حتى الآن فى تحاسد وحرص على سيادتها ، وعلى حق فى دفاعها عن شرفها ؛ وآثرت أخطار الحرب — ولو فظُعت بأسلحتها الحديثة ، فى سبيل الأطماع والشهوات — على سلام يحفظه مجلس مشترك بيده قوة متفوقة . ذلك بأن الاتحاد الذى

(١) LaConfederation de Délos . وديلس هى صغرى جزر السيكلاد فى الجنوب الشرقى القريب من أثينا .

(٢) La Ligue acheenne والنسبة إلى الاكين : kein acheens وهم جيل من اليونان استقر فى الجانب الشمالى من البلوبونيز

يعتمد مجلسه على مثل هذه القوة قد ينقلب امبراطورية يسود فيها الأقوى ، كما شهد التاريخ

أما وقد مضى خمسة وعشرون قرناً عانت الإنسانية فيها من الحروب بلايا فادحة أفظعها ما ترى من فتك هذه الأسلحة الشيطانية التي تمحق البشر وتمحو المدن ؛ أما وقد وعد الحلفاء بسلام دائم ورخاء عام ، فالأمول أن يفلحوا هذه المرة . والذي يؤكد الآملين أن الحلفاء صادقون في وعودهم قادرون على الوفاء بها هو ما يذاع من أقوالهم وينشر من كتاباتهم ويجيء ذكره في الأخبار من أعمالهم ، مثل « مشروع تأمين سلامة العالم » المقترح من مؤتمرهم في دومبرتون أوكس بأمريكا ، وملخصه[1] :

١ — إنشاء عصبة أمم جديدة تسمى « الأمم المتحدة » — على أن يكون للعصبة أربع هيئات هي « مجلس الأمن » ، الذي تكون له القيادة الفعلية لقوات العالم المسلحة ؛ « والجمعية العمومية » ، التي ينضوي تحت لوائها جميع الأعضاء — يعني جميع الأمم المحبة للسلام ؛ و « محكمة العدل الدولية » ، وأخيراً « السكرتارية » ، ويجب أن يكون السكرتير العام رئيساً إدارياً من حقه أن يوجه نظر مجلس الأمن إلى ما يبدو أنه يهدد السلام العالمي

٢ — أن يكون للدول الأربع الكبرى : أمريكا وبريطانيا والاتحاد السوفيتي والصين ، ثم فرنسا فيما بعد ، مقاعد دائمة في مجلس الأمن ؛ وأن تُشكل الجمعية العمومية من جميع أعضاء هذه الهيئة الدولية ، ويكون لها أن تنتخب الأعضاء غير الدائمين في المجلس

٣ — تشكيل « لجنة عسكرية » مهمتها إسداء النصيحة إلى مجلس الأمن فيما يتصل بجميع الحاجات العسكرية لحفظ السلام ، وبقواعد التسلح ، أو نزع السلاح إذا لزم الأمر ؛ وأعضاء هذه اللجنة هم رؤساء قيادة الولايات المتحدة وقيادات بريطانيا والاتحاد السوفيتي وفرنسا والصين ، أو ممثلوهم ؛ وعلى جميع أعضاء هذا النظام أن يضعوا تحت تصرف مجلس الأمن ، بناء على طلبه ، قوات مسلحة وأن يبذلوا العون اللازم للمحافظة على السلام

٤ — أن يجب على الأمم المتنازعة اتخاذ الوسائل السلمية فيما بينها ؛ فإذا استمر النزاع تولاه مجلس الأمن ، وهو صاحب الحق في أن يقرر لنفسه تولي أمر هذا النزاع ؛ فإذا وجد أن للنزاع ما يبرره أحاله على محكمة العدل ؛ وللمجلس أخيراً أن يستعمل القوة المسلحة متى تراءت له ضرورة ذلك

واضح أن بين هذا المشروع وبين اتحاد ديلس والعصبة الآخية أوجه شبه

هذا ويرى المستر سمنر ويلز ، وزير خارجية أمريكا السابق « أن وجود هيئة الأمن الدولية بعد الحرب سيكون مرهوناً باستعداد روسيا وبريطانيا والولايات المتحدة للعمل معاً »[1] .

إن تحالف الروسيا وبريطانيا والولايات المتحدة (نهض[2] على أسس المصالح الجوهرية الدائمة) من حيث أن هذه المصالح ، وإن اختلفت بين الدول ، تقتضي الإجماع على التخلص أولاً من العدو المشترك . وفيما يتعلق بتواتر الأحاديث (عن نشوب خلاف بين الدول الكبرى الثلاث حول بعض المسائل المتصلة بضمان سلامة العالم ، قال المرشال ستالين : هناك خلافات بطبيعة الحال وقد أوضحت قرارات مؤتمر دومبرتون أوكس حزم الجبهة المعادية للألمان ... والتحالف (سيصمد أيضاً لامتحان المراحل الأخيرة من هذه الحرب ... بل يجب علينا أيضاً أن نجعل من المستحيل وقوع أي اعتداء أو حرب جديدة إذا لم تكن نهائياً فعلى الأقل لوقت طويل)[3]

ويبدو أن في أمريكا نفسها من يعترض على أصحاب المشروع من هذه السياسة فيقول إنها « طريق الدولة العظمى » وقد قُطع مراراً من قبل ، وإنه يبدأ في الأغلب بفكرة « مثالية » ولكنه ينتهي دائماً بمعارك دموية . فالدول العظمى تتولى أمر العالم « بتحالف سلمي » ينتهي « بمناطق نفوذ » وكل دولة كبرى

(١) بإيجاز مما جاء في الأهرام يوم ١٠ اكتوبر الماضي

(١) برقية من نيويورك لجريدة المصري تاريخها ١٣ اكتوبر الماضي في شأن حديث للمستر ويلز أذيع بالراديو

(٢) من خطبة ستالين في الاحتفال بالذكرى السابعة والعشرين للثورة الشيوعية

(٣) من خطبة ستالين المذكورة

تسرع فى الأخذ بأساليب القوة فى منطقتها ، والمناطق تتزاحم وتتصادم . بعد سمنر ويلز من أعظم الساسة المطّلعين الذين أنجبتهم الولايات المتحدة ، وهو يقول : « ما من محالفة عسكرية تدوم ، فإن كل فريق فيها لا يلبث أن يحاور الفريق الآخر فى سبيل الأهداف الفردية الخاصة »(١)

ويقول آخر : « إن الحرب لا يمكن أن تمنعها إجراءات جماعة عامة ، والنظام العالمى لا يمكن أن يحرسه الشرَط . على أننا نستطيع أن نقيم مجلساً عالمياً تتشاور فيه الحكومات ، وتحاول أن تتفق . فإن المسائل التى تعدها الدول حيوية لا يمكن أن تقرر بالتصويت . إن الولايات المتحدة تحتاج الآن إلى الدفاع عن نفسها ـ شأنها فى ذلك شأن الدول الأخرى فى التاريخ ـ بالدبلوماسية والسياسة والسلاح ... ولا يمكن إقامة نظام دولى إلا بعمل متسق من « جماعات » من الأول . وأنا أسمى إحدى هذه الجماعات « جماعة الأطلسى » ومن الجلى أن روسيا محور وحدة ثانية ... فتقدم الدول الكبرى الحماية التى لا تستطيع الدولة الصغيرة أن تكفلها لنفسها ، بسبب الخصائص الفنية للحرب الحديثة ، وتقدم الدولة الصغيرة التسهيلات الاستراتيجية اللازمة للدفاع المشترك ... ولقد اهتدت الأمم الأمريكية إلى سياسة ثبتت فائدتها ، وإن كانت لم تبلغ بعد مرتبة الكمال . وقد كان من الممكن أن تفضى إلى امبراطورية أمريكية ؛ غير أنها أفضت إلى بدعة فى الشؤون الإنسانية هى البديل الصحيح الوحيد من الإمبراطورية ، وهو ما تسميه « سياسة الجوار الحسن »(١)

وإذا كان هذا الحسن بديل الإمبراطورية ، والتصادم من سوس الإمبراطوريات أو الدول العظمى أو مناطق النفوذ ، وكانت الأنانية أس الاجتماع الإنسانى ، فالحق أن منع الحرب حلم الأبد .

محمد توفيق السلحدار

(١) مقتطف بايجاز من ملخص كتاب والتر ليبمان فى عدد نوفمبر من مجلة المختار

(١) مقتطف بايجاز من مقال وليم هارد فى عدد نوفمبر من مجلة المختار

ظهر أخيرا كتاب

من يوميات محام

للأستاذ

عبده حسن الزيات

المحامى

كتاب يجمع نحواً من مائة يومية تؤلّف صوراً حميمة من الحياة النفسية والمهنيّة للمحامى ، وخواطر نقّادة فى المحاماة ، وما يتصل بها من قضايا وقضاء وفقه واشتراع وأدب واجتماع

كتبت فى مختلف الزمان والمكان ، ومتنوع المناسبات ، وأحدثها مناسبة المؤتمر الأول المحامين العرب بدمشق

ثمن النسخة خمسة وأربعون قرشاً صاغا مصريا

يطلب من مكتب المؤلف بشارع إبراهيم باشا رقم ١٠ بعابدين بالقاهرة ومن المكتبات الشهيرة